هل الفنون مقضيٌ عليها ؟

خطرُ المدنية الآلية : قصورُ الفلم

بقلم إميل كلميرتس
(الشاعر البلجيكي والناقد المشهور)

هل مقياسُ الفنّ العصريّ والأدب والموسيقى في اوربا احطُّ من نظيره في الازمنة السابقة ؟ إنّ الوسائل الهوائية التي يتخذها الفنانون المعاصرون والشعراء والملحّنون لأجل إعلان إبتكارهم تحمل كثرةً وافرةً من الناس على حسبان أنّنا مقتربون الى طورٍ من التدهور الكلّي حينما تصير الفنون بعيدةً عن أن تلعب دوراً هامّاً في الحياة الاجتماعية، فتغدو هواية فريقٍ صغيرٍ من المتعاطين والهُواة.

وبرغم ما تنطوي عليه هذه النتيجة من المنطق الظاهري هي بالأحرى سريعةٌ وسطحيةٌ. فهي مؤسَّسةٌ بعضَ الشيء على روح المحافظة الغريزيّة عند الرجال المدرَسيّين الذين يأبون — لحيازتهم معرفةً صحيحة عن الماضي المتألّق — أن يبذلوا الجهدَ الضروريّ لادراك فضائل (مزايا) الحاضر المتنوّع، ومؤسسةٌ بعضَ الشيء على مُوضَة العلل الفاشية التي تبدو من بعض المفكرين الذين يجحدون صفات جيلهم لأجل أن يبدوا تلك التي تاليه.

عند ما يُنظر الى عصر (١٩٠٠ — ١٩٣٠) في مرآة الواجب، فلاشك أنّهُ سيُنظَر اليه كتجربة فنية جريئة تسامى بكثرة تجاربه التي حيّت في السنين الاخيرة من القرن الماضي. ولا ادري كيف نفاضل ما بين نظريات « فوق الواقعيين » (*Super realists*) ونظريات المدافعين عن « الفنّ لغرض الفنّ » ، ولا بين غموض الرمزيّين القدامى (*old Symbolists*) وغوامض العصريين من الطابعيّين المتأخرين (*post-impressionists*) ولا بين غلوّ الإشراقيين (*luministes*) بالأمس وإفراط التكعيبيين اليوم. وفي الحقيقة يحتمل جدّاً ان يبدو الشعور بالتدهور والضعف الخُلُقي اقوى كثيراً في العقد العاشر من القرن الماضي منه في المدة التالية للحرب. فاذا كنّا لا نستطيع ان نؤدي الانصافَ حليتا، اليس ذلك لأنّنا لا نزال مخدوعين ببعض آثار عجاجةٍ ازجيت شطر انتباهنا بالاعلان الماهر، ولأنّنا لا نستطيع ان نستكشف تحت هذا السطح اللامع

الجهودات الأمينة المكدودة لعدد كبير من الكتّاب والفنانين والموسيقيين الذين سوف تمحو شهرتهم حينما يكون قد نُسِيَ الفنّ المثير الذي لا قرار أو فرحظًا ؟ بناء على ذلك ينبغي علينا ان لا نقبل بغير تحفظات نوبة الفكرة الشائعة القائلة بأنّ الفنون مضمحلة اليوم في معظم الأقطار الأوربية . حتى لو كان هذا هو الواقع لما وجب علينا ان ننسب هذا الانحطاط الى نشوء وسائل ميكانيكية مثل الجراموفون واللاسلكي

***

إنّ معظم الحجج التي تُقدَّم في مناقشات كهذه قُدِّمَت سابقاً منذ خمسين سنة مضت حينما بُدِيء بتطبيق العمليات الفوتوغرافية على نقل المناظر الطبيعية والأعمال الفنية . ولقد صارت قضية الفنّ ضدّ الفوتوغرافية مضجرة بحيث يندر ان يجرؤ احدٌ على الرجوع الى ترديدها في عصرنا هذا . إنّ اجهل الناس يستطيع اليوم ان يميز بين منظر يراه بعين فنّان رأي في صورة مصوّر ، والمنظر نفسه وقد سجّلته آلة التصوير الشمسي . فالاثنان لا يمكن ان يتدخل احدهما في الآخر وهما يلبّيان حاجتين متميزتين

واما عن نقل الأعمال الفنية ، فقليلون من النقّاد الفنيين مستعدون لأن ينسبوا الى الفوتوغرافيه اي تأثير ضار فيه

فاذا كان من الجائز ان الصور الرديئة اللون تشوّه غالباً الاصول ، فانّ الخدمات التي تؤديها الفوتوغرافية الاعتيادية (اي بالاسود والابيض) بالنسبة للاشكال المرسومة والمنحوتة حتى للصُّور الزيتية لا يمكن المبالغة في تقديرها

إن مقياس الاتقان الذي بُلِغ في الترتيب العام للضوء والظل وفي توزيعهما هو على درجة من السموّ بحيث ان الصور الفوتوغرافية للاعمال الفنية تُعَدّ في كل مكان من وجهة تهذيبية غاية في النفع . ومسألة الفوتوغرافية تزوّدنا بسابقة جيّدة حينما تناول التسجيلات الآلية للموسيقى مثل تلك التي يقدمها الجراموفون او اللاسلكي . كانت وسائل النقل هذه ركيكة جداً في المبدأ ، فاذا هي قد بلغت اليوم فعلاً درجة من التهذيب حتى تستطيع ان تنظر الى بعض سجلات معيّنة لبعض القطع الموسيقية مثلاً بنفس الارتياح الذي تنظر به الى صورة بديعة لتمثال آية في الفن . إنها ليست مساوية للاصل ، ولكنها قريبة منه بحيث تثير ذكريات اولئك الذين سمعوا الاصل في حفل موسيقي ، بل تعطي فكرة حسنة جداً عن صفاتها الى اولئك الذين لم يُتَح لهم ان يتمتعوا بهذه الفرصة

فلا يصح بعد الآن أن يقال ان الوسائل الآلية لنقل الصوت تنزل ، في الغالب ، تقدير الجمهور في الشؤون الموسيقية بسبب نقل الاصل نقلاً ناقصاً او مشوّهاً . فاذا لم تكن

بعض البرامج اللاسلكية سامية من الوجهة الفنية دائماً ، وإذا كانت موسيقى الجاز والاغاني الهزلية تحتل بكثرة ظهورها في بعض قوائم « السجلات »[1] ، فهذا ناشئ غالباً عن اتجاه الذوق العام لا غير

فانهُ لما زاد عدد النازعين من الناس الى سماع الموسيقى زيادة جسيمة زادت المستبطاتُ الآليةُ الحديثةُ الطبَ للالحان المألوفة ، وهذا ما ينبغي إرضاؤه . ومن الصعب ان نحكم إذا كانت النسبة بين الموسيقى التي من الدرجة الثالثة والموسيقى التي من الدرجة الاولى التين تُقدَّمان الى الجمهور تختلف اليوم عما كانت عليه قبل اختراع الجراموفون . ولكن يمكن أن يُقال باطمئنان إن عدد الناس الذين يستطيعون ان يقدّروا المنتجات الموسيقية البديعة التي جُعِلَتْ ميسورةً لهم قد ازداد باطراد مستمر في السنوات العشرة الاخيرة

***

أنَّ مقياسَ الادبِ والنقشِ والموسيقى لا يمكن ان يهدد باستعمال الطرائق الآلية الا إذا كانت الاخيرة تمسخ العمل الاصلي ، أو تعاون على إفساد ذوق الجمهور بنشر الاعمال الحقيرة الى مدى ابعد من غيرها . وكلا الرأيين من الصعب التمسُّكُ به اليوم فيما يتعلق بالكلام أو الموسيقى . على ان مثل هذا لا يمكن ان يقال عن السينما والفلم الناطق كبديلين عن البراعة الادبية او كصورة منها . وكيفما كانت قيمة هذه المستبطات في داخل دوائرها فانها ما تزال عاجزة عن موافاة الجمهور بصورة وافية لرواية بديعة أجيد تمثيلها ، بل لنا ان نقول إن هذا الغرض لم يتبعهُ برغبة قوية مخرجو الصور المتحركة . ورغماً عن الممكنات التي لا حصر لها الموضوعة تحت تصرفهم ، كان جهدهم موجهاً إما الى اخراج الحماسيات المثيرة او الى اعطاء صورةٍ دقيقةٍ من الوقائع الحقيقية . وبهذه الكيفية لم ينجحوا خير منازع المسرح المصري بل نجحوا أسوأها — الميلودراما ، والاصرار على التفاصيل التافهة . ويجب ان يقارن نفوذهم بنفوذ الفوتوغرافي الذي بدلاً من ان يطبق مهارتهُ في الحصول على نسخةٍ امينةٍ من صورة بريشة ومبرانت يقنع بتصوير اول شيخ مُسْتَرْعٍ للانظار[2] يقابله في الطريق

فمن الجائز ان تكون صورتهُ حسنة جداً ، ولكنها في بعدها عن صورة ومبرانت كبعد احسن فيلمٍ عصريٍ عن درامةٍ لجيمز باري وبرنارد شو[3]

— مترجمة — خاصة بالمقتطف

(١) يريد أفراس الجراموفون (٢) يستحق للتصوير : picturesque
(٣) اشهر كتاب الروايات التمثيلية عند الانكليز في العصر الحاضر